مثل عمّال الكرم
مت٢٠: ١-١٦[١]

الأب ريمون هاشم

١. فمُشبّهٌ هو ملكوتُ السماواتِ بـ

إنسانٍ ربِّ بيتٍ، الذي خرج مع الفجرِ (السادسة فجرًا) ليستأجرَ عمّالاً لكرمهِ.

٢. ومتّفِقًا مع العمّال على دينارٍ في اليومِ أرسلَهُم إلى كرمِه.

٣. ولمّا خرجَ نحوَ الساعة الثالثةِ (التاسعة صباحًا) رأى آخَرينَ واقفينَ في الساحةِ بطّالينَ

٤. ولهؤلاءِ قال، واذهبوا أنتُم إلى الكرم، وما – هو حقٌّ سأُعطي لكم.

٥. وهم انطلقوا. من جديدٍ، ولمّا خرجَ نحو السادسة (الثانية عشرة ظهرًا) والساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) صنعَ كذلك.

٦. ونحو الحاديةَ عشرةَ (الخامسة بعد الظهر) لمّا خرجَ وجدَ آخَرينَ واقفينَ فيقولُ لهم، لماذا هنا وقفتم النهارَ كلّهُ بَطّالين؛

٧. يقولونَ لهُ: لأنّه لا أحَدَ استأجرَنا.

يقول لهم: إذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم.

٨. ولمّا صارَ مساءٌ (السادسة مساءً) يقول سيّدُ الكرمِ لوكيلِه، أدعُ العمّالَ وادفع لهُم الأجرةَ مبتدئًا مِن الآخرين إلى الأوّلينَ.

---

(١) بولس الفغالي وأنطوان عوكر ونعمة الله الخوري ويوسف فخري، **ترجمة بين السطور (يونانيّ–عربيّ)**، منشورات الجامعة الأنطونيّة، كليّة العلوم البيبليّة والمسكونيّة والأديان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

٩. ولمّا أتَوا الذينَ نحوَ الساعةِ الحاديةَ عشرَة (الخامسة مساءً) أخذوا كلٌّ واحدٍ دينارًا.

١٠. ولمّا أتَوا الأوّلون (السادسة فجرًا) ظنّوا أنّهم أكثرَ سيأخذونَ، فأخذوا كلٌّ واحدٍ دينارًا أيضًا هم.

١١. لمّا أخذوا، وكانوا يتذمّرون على ربِّ البيتِ

١٢. قائلين، هؤلاء الآخِرون ساعةً واحدةً عمِلوا، ومساوينَ بِنا عمِلتَهم نحن الذين احتملنا ثِقَلَ النهارِ والحرِّ.

١٣. وهو مجيبًا واحدًا منهم قالَ، يا صاحبُ، ما ظلمتُك؛ أما على دينارٍ اتّفقتَ معي؛

١٤. خُذ الّذي لكَ واذهب. فأُريدُ لهذا الأخيرِ أن أُعطي كما أيضًا لك.

١٥. أو ما يحقُّ لي أن أعمَلَ ما أريدُ في التي لي، أم عينُك شرّيرةٌ هي لأنّي أنا صالحٌ هو؛

١٦. هكذا سيكونونَ الآخِرونَ أوّلينَ والأوّلونَ آخرينَ.

المقدّمة

لقد حدّثنا المسيح بالأمثال ومن بينها مثل عمال الكرم (مت ٢٠: ١–١٦)، موضوع بحثنا، حيث شبّه الملكوت بربّ بيتٍ يملك كرمًا[٢]، وهو رمز يشير في الكتاب المقدّس إلى شعب الله. والرّبّ في هذا المثل يدعو شعبه إلى الدخول إلى الملكوت الذي يملك عليه ربّ البيت أي الخالق بنفسه؛ وشبّه ربّ البيت شعبه بالكرم خاصّته لأنّ ثمر الكرم هو عنقود العنب، ومنظر العنقود في أوّل طلعته يكون جميلاً ونكهته طيّبة، لكن عندما يذبل قد نستخرج منه النبيذ أو الخلّ أو الدّبس ولا يُرمى منه شيء. بذلك نتلمّس مدى سهر الخالق على خلقه،

(٢) وقد شُبّه بنو إسرائيل بالكرمة (مز ٨٠: ٨–١٦)، والربّ يسوع بأصل الكرمة، وأتباعه بأغصانها (يو ١٥: ١–٨).

هو الذي يختار أولياءه من دون تمييز لأنّ أفراد شعبه لا يتميّزون عن بعضهم البعض بشيء بالنسبة إليه؛ فالجميع مقبولون عند الرّب، الدبس والخلّ والنبيذ والعرق...، ومهما كانت نوعية إنتاج الإنسان، فمكانه محفوظ عند الرّب.

وعندما دعا ربّ البيت الفعلة في الساعة الأولى، رَمَز بدعوته هذه إلى الوقت الذي أرسل فيه موسى إلى شعبه الذي كان يفتّش عن الله من أجل أن يخلّصه[٣]، فتجاوب الله وأبرم عهدًا بينه وبين شعبه يدعوه فيه إلى حفظ الوصايا والالتزام بتعاليم الآب التي نطق بها موسى[٤]. أمّا الدعوتان الثانية والثالثة فترمزان إلى مجيء إيليّا[٥] والأنبياء[٦]. وفي النهاية أتى المسيح ودعا فعلة الساعة الخامسة الذين أمضوا نهارهم في الساحات ولم يدْعُهم أحد، لا من أتباع موسى ولا من أتباع إيليّا أو باقي الأنبياء، وقال لهم: «إذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم». نستنتج من ذلك أنّ الله مهتمٌّ بخلاص النفوس، ولكن فقط النفوس التي تفتّش عنه، لأنّه لا يتدخّل في حياة أيّ نفس بالقوّة حتّى ولو كانت النفس منذ لحظة خلقها، ملكًا له.

سنعالج في بحثنا هذا أربع نقاط فقط، وهي التالية: وحدة النصّ الأدبيّة ومحتواه، النصّ في سياقه الأدبيّ، توزيع النصّ البلاغيّ وشرحه. وسأكتفي بعرض شروحات لم يأتِ آخرون على ذكرها، محاولاً الاعتماد على أبحاثي الخاصّة وعلى ما ألهمني الله به.

(٣) ونحو تمام الأربعين سنة رأى نارًا في وسط علّيقة (خر ٣: ١-١٠)، والعلّيقة لا تحترق؛ فلمّا دنا لينظر نودي من وسطها وأمر أن يذهب إلى مصر ليكون قائدًا لشعبه ويخرجهم من هناك. وقال له الربّ أيضًا (آ ١٠): «والآن هوذا صراخ بني إسرائيل قد بلغ إليّ، وقد رأيتُ الظلمَ الذي ظلمهم به المصريّون». والصراخ في هذه الآية يعني المناجاة ويُستنتج منه اكتمال إيمان الشعب وثقته بالربّ.

(٤) خر ٣٤: ١-٢٨ وتث ٤: ٩-١٤.

(٥) ثمّ بعث الله إيليا ليمسح ياهو ملكًا على إسرائيل وليمحو شرّ بيت آخاب وعبّاد البعل، وليمسح حزائيل ملكاً على آرام، وليمسح أليشع نبيًّا ليخلفه (١ مل ١٩).

(٦) الذين أتوا للتذكير بكلام برسالة موسى وإيليّا، كأشعيا وإرميا وباقي الأنبياء.

١- وحدة النصّ الأدبيّة ومحتواه (مت ٢٠: ١-١٦)

يشكّل النصّ وحدة أدبيّة قائمة بذاتها كونه ينتمي إلى أدب الأمثال الذي استعان به المسيح؛ فالمثل عادة يحتوي على مقدّمة تتضمّن الهدف الذي دفع بالمسيح إلى الاستعانة به، «**فمُشبّهٌ هو ملكوتُ السماواتِ بـ**» (آ ١أ)، وعلى القصّة التي تسرد حدثًا ما، استُنبِط من العيش اليوميّ المعتاد (آ ١ب- ١٥)، وعلى خاتمة تتضمّن الحكمة المُستنتجَة من المثَل، «**هكذا سيكونونَ الآخِرونَ أوّلينَ والأوّلونَ آخرينَ**» (آ ١٦). فالنصّ يتكلّم على «ربِّ بيتٍ» (آ ١ب) ذهب عند الفجر للتفتيش عن عمّال يستأجرهم للعمل في كرمه (آ ١-٧)، فكان أن اتّفق مع مجموعات عدّة تفاوتت ساعات بدء عملها في ما بينها؛ فبدأت مجموعة عملها عند الفجر، وثانية في منتصف النهار، وأخرى قبل نهاية دوام العمل بساعة واحدة. أمّا النصف الثاني من النصّ فيبدأ عند المساء (آ ٨)، أي عندما انتهى دوام العمل واستُدعي الوكيل لمحاسبة العمال الذين استأجرهم ربّ الكرم، مبتدئًا بالآخِرين ومنتهيًا بالأوّلين؛ فما أن بدأ بإعطائهم الدينار المُتّفق عليه مع صاحب الكرم، حتّى اعترض الأوّلون على حكمة ربّ البيت كونه ساواهم بالذين استأجرهم في ساعات متأخّرة من النهار (٨-١٦).

٢- مت ٢٠: ١-١٦ في سياقه الأدبيّ

ينتمي مت ٢٠: ١-١٦ إلى الجزء الممتد من ١٦: ٢١ إلى ٢٠: ٣٤ وهو يقسم إلى ثلاثة أقسام هي التالية:

- الأوّل، مت ١٦: ٢١-١٧: ٢٧ يذكر فيه متّى المرّات الأربع التي تحدّث فيها المسيح عن موته وقيامته وعن هويّة الذين سيقتلونه (مت ١٦: ٢١ و١٧: ٩، ١٢، ٢٢-٢٣)، ويشير إلى حدث التجلّي الذي ظهر فيه كلام الآب، لافتًا إلى ضرورة الإصغاء لابنه بالرغم من ظهور موسى وإيليّا إلى جانبه (١٧: ٢-٨). وفي هذا القسم أيضًا يوحّد بين إيليّا ويوحنّا الذي عملوا به ما أرادوا، وكذلك ابن الإنسان الذي سيعاني منهم الآلام (١٧: ٩-١٣) لأنّهم رفضوا الإصغاء إلى كلامه وتعلّقوا بمفاهيمهم.

– الثاني، مت ١٨: ١-٣٥ وهو القسم الذي يتكلّم فيه المسيح عن الأكبر في ملكوت السماوات (١٨: ١-٥) وعن جزاء مَن يحتقر كلّ مَن دخل الملكوت ويكون حجر عثرة له (١٨: ٦-١١).

– الثالث، ١٩: ١-٢٠: ٣٤، وفيه يستعين متّى بعبارات عديدة تتضمّن إشارة واضحة إلى كلام المسيح الذي ينطق به، محاولاً تصحيح المفاهيم اليهوديّة للشريعة الإلهيّة (مت ١٩: ٢، ١١، ٢٢، ٢٥؛ ٢٠: ٢٤). فلنأخذ مت ١٩: ١-٢٠ :٣٤ الذي ينتمي إليه مثل عمّال الكرم (٢٠: ١-١٦) كي تتّضح لنا صورة المواجهة بين مفاهيم المسيح الجديدة للكلام السماويّ ومفاهيم اليهود لها، والتي أدّت إلى النبوءة التي أعلن فيها المسيح عن الآلام التي سيتعرّض لها.

يتضمّن المقطع الأوّل ١٩: ١-١٢ حدث شفاء الجموع الكثيرة (آ ١-٢)، وحوارًا حول موضوع الطلاق الذي استعان فيه الفرّيسيّون بموسى كمرجع أساسيّ للتأكيد على فكرة السماح لهم بالطلاق (آ ٧)، ومعارضة المسيح لهذه الفكرة التي تتضارب مع قساوة قلوبهم (آ ٨)، ومع نصّ الشريعة الأساسيّ (آ ٤-٦ و٨-٩). وأضاف المسيح على نظرته عبارة «هذا الكلام لا يفهمه الناس كلّهم، بل الذين أنعَم عليهم بذلك» (آ ١١)، ليستخرج في النهاية العِبرة الأساسيّة من كلامه التي تتحدّث عن الخصيان الذين يرمزون إلى كلّ مَن ولد متجرّدًا أو مَن تعلّم التجرّد أو تجرّد بنفسه عن فكره ليتبنّى الفكر الذي يُدخله إلى الملكوت (آ ١٢).

ويتوازى ١٩: ١-١٢ مع المقطع الأخير من هذا القسم وهو ٢٠: ٢٩-٣٤ الذي يتضمّن حدث شفاء الأعميَين اللذين ذكرَا الملك داود معترفَين بمسيحانيّة يسوع كونه ابنه (آ ٣٠). والواضح في الأمر تكرار حدث الشفاء في المقطعَين، وذكر اسمَين أساسيَّين من العهد القديم، موسى وداود، أمّا العِبرة الأساسيّة من الترابط بين المقطعين فلا يعقل أن تكون إظهار قدرة يسوع على الشفاء الجسديّ فقط، بل قدرته على التنوير وفهْم أقوال موسى والأنبياء وما

يقوله على مسامعهم. في الواقع، إنّ الذي أُعطي له أن يفهم هو الذي اعترف بيسوع ابنًا لداود وطلب منه التنوير، لكي بفهمه يطبّق كلام المسيح ويدخل ملكوت السماوات طالما أنّ مفاتيح ملكوت السماوات مرهونة بالاعتراف بالكلام وفهْمه. لقد ذكر المسيح عبارة «كلّ مَن سمع كلمة الملكوت ولم يفهمها» (١٣: ١٩) ليؤكّد على أنّ الدخول إلى ملكوت السماوات مرهون بالكلمة وفهْمها.

أمّا المقطع الثاني فهو مت ١٩: ١٣–٣٠ الذي يتضمّن حدث استقباله للأولاد (١٣–١٥) وقوله فيهم: «فإنّ لأمثال هؤلاء ملكوت السماوات» (آ ١٤)، وحدث الشاب الغنيّ الذي دنا من يسوع ليستفهم عن الصلاح الذي يؤهّله للدخول إلى الحياة الأبديّة (١٦–٢٢). وفي هذا المقطع أيضًا قول المسيح للتلاميذ الذين دُهشوا من جوابه للشاب الغنيّ، وتساءلوا حول مَن يستطيع أن يدخل ملكوت السماوات (١٩–٢٦)، وجواب يسوع عن جزاء مَن يترك كلّ شيء من أجل المسيح (٢٨–٣٠). في الواقع، إنّ الأولاد في هذه الآيات يوحون بالحالة التي ينبغي أن يتحلّى بها كلّ مَن يريد اتّباع المسيح، وهي الإيمان والاستسلام والبراءة والشعور بالأمانة واعتبار المسيح بقدرته وكلمته وتعاليمه، الضمانة الوحيدة للحصول على الخلاص. أمّا الشاب الغنيّ بماله وسلطته فقد اعتبر نفسه عديمَ المقدرة على اتّباع المسيح في إصغائه وطاعته وإيمانه وتجرّده؛ فالذي يتخلّى عن سلطته وماله يربح مال الله (آ ٢٩)، ويجلس على عرشٍ كي يدين كلّ مَن مرّ بهم أو مَن سمعوا كلامه، كما سيحدث مع المسيح نفسه عندما يجدّد كلّ شيء ويجلس على عرش مجده (آ ٢٨). إنّ المسيح في هذا المقطع يشدّد على المال الذي سيكسبه الإنسان الذي يتحلّى بنفسيّة الطفل الذي يسلّم ذاته إليه كي يربّيه على مفاهيم جديدة يتقبّلها كما هي، ومن دون الحاجة إلى فهمها؛ فالطفل لا يحتاج إلى التخلّي عن أفكار سابقة ليزرع أخرى، بل يتقبّل كلّ ما نعلّمه إيّاه، أمّا الإنسان الغنيّ فهو غنيّ بمبادئه التي عليه أن يتخلّى عنها، وعليه ألا يتشبّث بها كي يتسنّى له الإصغاء إلى المبادئ الإلهيّة الجديدة التي جاء بها المسيح، والعمل بها وفهمها بمعونة

إلهيّة كي يدخل ملكوت الله ويصبح غنيًا بالله وديّانًا للبشر. ألا يشير هذا الغِنى الإلهيّ إلى الدينار الذي سيناله عمال الكرم الذين أتى المسيح على ذكرهم في مثله (٢٠: ١–١٦)؟ والأطفال، ألا يشيرون إلى البطّالين الذين لم يستأجرهم أحد وهم ما زالوا منتظرين قدوم مَن يستأجرهم (٢٠: ٣)؟ والشاب الغنيّ إلى الذين تذمّروا من مبدأ الوكيل واعتبروه مهينًا لهم لأنّه ساواهم بالذين عملوا ساعة واحدة في كرمه، وإلى الذين لم يستطع ربّ الكرم استئجارهم للعمل في كرمه (٢٠: ١١–١٢)؟

أمّا الآيات مت ١٩: ١٣–٣٠ فتأتي بالتوازي مع الآيات ٢٠: ٢٠–٢٨ لأسباب عدّة نذكر منها موضوع السلطة التي سينالها التلاميذ إن ثبتوا في تجرّدهم حتّى مجيء المسيح بمجده (آ ١٩: ٢٨)، والذي أدّى إلى خلق روح المنافسة بين التلاميذ على المرتبة الأولى، وذلك على أثر مداخلة والدة ابنَي زبدى التي طلبت من المسيح ما يلي: «مُرْ أن يجلس ابناي هذان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك في ملكوتك» (٢٠: ٢١). والواضح في الأمر هو المفهوم الخاطئ الذي طرحت والدة ابنَي زبدى سؤالها من خلاله، لأنّ الأكبر والأصغر يحدّد الآب وحده موقعهما من ابنه انطلاقًا من المبدأ الذي أعلن عنه المسيح في مت ٥: ١٩ حين قال: «فمَن خالف وصيّة من أصغر تلك الوصايا وعلّم الناس أن يفعلوا مثله، عُدّ الصغير في ملكوت السماوات. وأمّا الذي يعمل بها ويعلّمها فذاك يُعَدّ كبيرًا في ملكوت السماوات». إذًا فالمكانة تُحدَّد انطلاقًا من حفظ كلام الآب وفهمه وعيشه، وهذا الكلام نقله إلينا الابن الذي عاشه بملئه وجعل منه البِكر. لذلك عندما هاجت نفسيّة التلاميذ الحاسدة والتي امتعضت من مداخلة والدة ابنَي زبدى، تدخّل المسيح ليصحّح مفاهيم التلاميذ التي أتوا بها عندما قرروا اتّباعه (٢٠: ٢٤–٢٨). إذًا، فالذي يريد أن يأخذ المكان الأوّل في الملكوت عليه بالطاعة والطواعية الكاملة لمبادئ المسيح من دون أيّ حزن على مفارقته لمبادئه السابقة التي أتى بها وكان أجيرًا لها؛ فالتلاميذ، بقبولهم لمفاهيم معلّمهم الجديدة من دون أيّ جدل أو اعتراض لها، يُشبهون بموقفهم الأطفال الذين قرّبوهم للمسيح كي يباركهم في مت

١٩: ١٥. ألا يشبه التلاميذ بمواقفهم الحاسدة والمنافسة عمّال الساعة الأولى (٢٠: ١–٢)، ويشبهون، بتحلّيهم بعقل مطواع ظهر بعد مداخلة المسيح من أجل تصحيح أفكارهم وبعدم مجادلتهم له وقبولهم لأفكاره من دون أيّ جدل أو اعتراض، عمّال الساعات المتأخّرة (٢٠: ٣–٩)؟ إذًا، مَن يبقى على موقفه عندما يسمع كلام المسيح يصبح آخِرًا، ومَن يغيّر موقفه ليجعله واحدًا معه يصبح أوّلَ.

أمّا محور مت ١٩: ١–٢٠: ٣٤ فهو المقطعان المتوازيان في ما بينهما ٢٠: ١–١٦ و٢٠: ١٧–١٩، لأنّ المسيح ما كان ليتنبّأ عن آلامه وموته لو لم يتلمّس اعتراضًا واضحًا من قِبل عظماء الكهنة والكتبة. أمّا التوازي بين النصّين فهو واضح لأنّه يرتكز على التضادّ الظاهر في انقلاب الأحوال عند الوكيل الذي جمع الفعلة الذين عملوا في كرمه من أجل محاسبتهم (مت ٢٠: ٨)، وعند الفعلة الذين اعترضوا حكمته ومبادئه وصاروا هم مَن سيحكمون عليه في أورشليم لأجل ما جاء به من تعاليم وأحكام جديدة هدّدت مفاهيمهم وتعاليمهم (مت ٢٠: ١٨).

بعد البحث الذي قمنا به، يصبح التوزيع البلاغيّ للمشاهد الواردة في مت ١٩: ١–٢٠: ٣٤ على الشكل التالي:

A ١٩: ١–١٢: شفاء الجموع. اعترض اليهود يسوع بسبب مبدئه بالاستناد إلى موسى. وبعدم اعترافهم بيسوع لم يطلبوا منه المعونة ليفهموا ما قاله لهم ويتنوّروا فيدخلوا ملكوت السماوات.

B ١٩: ١٣–٣٠: التحلّي بعقليّة الأطفال وعدم الوقوع في الحزن على مفارقة ما كنّا نمتلكه منذ القدم، عندما ندخل في عالم مفاهيم المسيح لكي نغتني بالله ونستطيع مشاركة المسيح في ملكوته.

C ٢٠: ١–١٦: مثل عمّال الكرم والوكيل المحاسب، واعتراض فعلة الساعة الأولى.

C` ٢٠: ١٧-١٩: المسيح يتنبّأ بمحاكمته من قِبل عظماء الكهنة والكتبة.

B` ٢٠: ٢٠-٢٨: الإنسان يحدّد موقعه من الابن بموقفه من كلام الآب الذي نقله المسيح إلى البشريّة. بكلام المسيح دعوة إلى التخلّي عن روح الحسد والمنافسة والتحلّي بروح الطواعية الشبيهة بطواعية الأطفال لقبول مبادئ المسيح من دون جدل أو أيّ تحليل مسبق.

A` ٢٠: ٢٩-٣٤: شفاء الأعميَين لأنّهما اعترفَا بيسوع ابن داود، وطلبَا منه الرحمة.

٣- التقسيم البلاغيّ للنصّ (مت ٢٠: ١-١٦)

يُقسّم النصّ بشكل عامّ إلى ثلاثة أقسام، كما سبق وذكرنا. الأوّل: المقدّمة (آ ١أ)، الثاني: مضمون المثل (آ ١ب-١٥)، والثالث: الخاتمة (آ ١٦)، أمّا المثل فهو يتكوّن من قسمَين، آ ١ب-٧ و آ ٨-١٦.

أ- آ١ب-٧

يتكرّر الفعل «خرج» أربع مرّات في النصّ (آ ١ب، ٣، ٥، ٦) وهو يقسّم الآيات ١ب-٧ إلى أربعة مشاهد يظهر فيها صاحب الكرم خارجًا ليفتّش عن عمّال لكرمه، الأوّل، عند الفجر (آ ١ب-٢)، الثاني، عند الساعة الثالثة (آ ٣-٥أ)، الثالث، عند الساعة السادسة والتاسعة (آ ٥ ب)، والرابع، عند الساعة الحادية عشرة (آ ٦-٧).

ويستعمل الإنجيليّ كلمة «بطّالين» ليصف حالة العمّال الذين استأجرهم عند الساعة الثالثة (آ ٣) والحادية عشرة (آ ٦)، ليرفقها بأقوال ربّ الكرم الذي يطلب منهم الذهاب إلى كرمه والعمل فيه (آ ٤ و٦ب-٧). ومن الملاحظ أنّه لم ترِد هذه الصفة ولا أيّ حوار بين صاحب الكرم والعمال في المشهدَين الآخَرَين (آ ١ب-٢ و ٥ب).

نستنتج ممّا ورد أنّ آ ١ب–٢ تتوازى مع آ ٥ب، وآ ٣–٥أ مع الآيات ٦–٧ ليصبح القسم الأوّل من المثل موزّعًا على شكل متوازٍ، هو التالي:

- آ ١ب–٢
  - آ ٣–٥أ
- آ ٥ب
  - آ ٦–٧

ب–آ ٨–١٥

تقسّم آ ٨–١٦ إلى أربعة مشاهد: الأوّل، عندما طلب صاحب الكرم من وكيله البدء بمحاسبة العمّال (آ ٨)، الثاني، عندما حاسب عمّال الساعة الحادية عشرة (آ ٩)، الثالث، عندما حاسب العمّال الأوّلين واصطدم بتذمّرهم (آ ١٠–١٢)، الرابع، جواب ربّ البيت على اعتراضهم (آ ١٣–١٦).

وإذا ما راجعنا هذا القسم من المثل نلاحظ أنّ صاحب الكرم تكلّم مرّتين فقط، الأولى مع وكيله عندما طلب منه أن يبدأ بمحاسبة العمّال (آ ٨)، والثانية عندما ردّ على التذمّر الذي صدر عن العمّال الذين بدأوا عملهم عند الفجر (١٣–١٦)، كما أنّ الفعل «أخذ» لا يتكرّر إلاّ في آ ٩ وآ ١٠–١٢. لذلك فالآية ٨ تتوازى مع آ ١٣–١٦ وآ ٩ مع آ ١٠–١٢.

نستنتج ممّا ورد أنّ آ ٨–١٦ موزّعة على الشكل المحوريّ التالي:

- آ ٨
  - آ ٩
  - آ ١٠–١٢
- آ ١٣–١٦

ج- مت ١٦: ١-٢٠

بعد الانتهاء من تقسيم كلّ مشهد على حدة، لم يبقَ علينا سوى ربط المشاهد ببعضها البعض؛ فـ آ ١ب-٢ تتوازى مع آ ١٠-١٥ لأنّ المجموعتين تتحدّثان عن الموضوع نفسه، وهو العمّال الأوّلين الذين اتّفقوا مع ربّ البيت عند الفجر، واعترضوه عند المساء أثناء الحساب. أمّا آ ٣-٦ فهي تتوازى مع آ ٩ لأنّها تتحدّث عن كلّ العمّال الذين بدأوا عملهم في ساعات متأخرة ومتفاوتة من النهار، وأخذوا أجرَهم متساويًا مع أجر الأوّلين. ويبقى في النصّ آ ١أ التي تتضمّن الهدف الذي من أجله استعان يسوع بهذا المثل، وهو الإشارة إلى ملكوت السماوات وسبله التي كشفها في خاتمة هذا المثل، **هكذا سيكونونَ، الآخِرونَ أوّلينَ والأوّلونَ آخرينَ** (آ ١٦). أمّا الآية التي تشكّل محورًا للنصّ في آ ٨ فتتضمّن استدعاء ربّ البيت لوكيله من أجل محاسبة عمّال كرمه.

نستنتج ممّا ورد التوزيع المحوريّ لـ مت ٢٠: ١-١٦، وهو التالي:

A آ ١أ: تشبيه ملكوت السماوات

B آ ١ب٢: استئجار عمّال الكرم الأوّلين

C آ ٣-٧: استئجار عمّال الكرم الآخِرين

D آ ٨: ربّ البيت يستدعي الوكيل لمحاسبة العمّال

C` آ ٩: محاسبة العمّال الآخرين

B` آ ١٠-١٥: محاسبة العمّال الأوّلين

A` آ ١٦: الحكمة من المثل الذي شُبّه به ملكوت السماوات

٤- شرح مت ٢٠: ١-١٦

خلق الله العالم بكامله، وخلق كواكب لا تُحصى، ووزّعها بطريقة لا تُدرك، أمّا الكوكب الذي عنى له الكثير فهو الأرض بذاتها لأنّها تحوي النفس التي

أعطاها للإنسان كي يسترجعها الخالق بعد ممات هذا الأخير، كونها ملكًا له[٧].

يبدأ المثل بعبارة: «**فمُشبّهٌ هو ملكوتُ السماواتِ بإنسانٍ ربِّ بيتٍ، الذي خرج مع الفجر (السادسة فجرًا) ليستأجرَ عمّالاً لكرمه**» (آ ١)، من دون أن يحدّد موقع «الكرم» الجغرافيّ لأنّه يرمز إلى نفس الإنسان التي أعطاه إيّاها؛ لقد أعطى الله النفس للإنسان كي يجعل منه ما هو عليه، واستعان بالتراب ليصنع له جسدًا ترابيًّا، مع العلم أنّه وعد ذاته باسترجاع ما هو له، أي النفس، ووعد الأرض باستعادة ما أُخذ منها عندما تفارق النفس جسدها[٨]. وعندما تُجبل النفس تُخلق نفسيّة الإنسان وأطباعه. إذًا فالكرم يوحي بنفسيّة الإنسان وأطباعه كون النفس بحدّ ذاتها طاهرة لأنّ الخالق هو مصدرها[٩]. واتفق بعد ذلك مع فعلة بدأوا عملهم في الكرم منذ الساعة الأولى من النهار وأعطاهم دينارًا واحدًا في اليوم: «**ومتّفِقًا مع العمال على دينارٍ في اليومِ أرسلَهُم إلى كرمِه**» (آ ٢)، وهؤلاء دُعوا بالأوّلين؛ في الواقع يُمكننا تطبيق المثل على العديد من الفئات التي بدأت عملها باكرًا، وأبرزهم اليهود الذي أُرسلوا إلى الكرم قبل مجيء المسيح، والمكرّسون

(٧) فالله خلق السماوات والأرض (تك ١: ١)، والحياة المائيّة والهوائيّة (عد ٢١)، والإنسان (عد ٢٧)، والكواكب (أش ٤٠: ٢٦)، والريح (عا ٤: ١٣)، وهو الذي يخلق القلب النقيّ الطاهر (مز ٥١: ١٠).

(٨) تك ١: ٢: «فخلق الله الإنسان على صورته ومثاله، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم»؛ ٢: ٧: «وجبل الربّ الإله الإنسان ترابًا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمَة حياة، فصار الإنسان نفسًا حيّة». ونعني بالنفس الروح التي تفرّقه عن الحيوان، وهي تجعله على شبه الله ومثاله بارتباطها بالعقل الذي يمثّل الحرّيّة والإرادة. وردت النفس بمعنى الروح في يع ٥: ٢٠. وقسّم بولس الإنسان إلى روح (أي الحياة الخالدة) وجسد ونفس (أي الحياة الحيوانيّة) (١ تس ٥: ٢٣ وعب ٤: ١٢). أمّا نحن فسنستعمل كلمة «نفس» بمعنى الروح، ونخصّ نفس الحيوان بعبارة «بنسمة حياة» يسيّرها الحيوان (تك ٢: ٧ و١: ٢٠) بغريزته التي تميّزه عن حرّيّة الإنسان وإرادته.

(٩) النفس هي هبة الله (تك ٢: ٧) ولها قيمة عظيمة (مت ١٦: ٢٦). ويجب أن نهتمّ فوق كلّ شيء بخلاصها من النفسيّة والأطباع الأرضيّة التي تُجبل معها (مت ١٠: ٢٨)، ويجب أن ننكر كلّ ما فيها من ذات أرضيّة (لو ٩: ٢٣)، ويجب أن نمتحنها لننقّيها (٢ كو ١٣: ٥)، وأن نحبّ قريبنا كما نحبّ أنفسنا (يع ٢: ٨)، إلخ.

المدعوّون إلى عيش الكهنوت والحياة الرهبانيّة على أنواعها، بعد المسيح. كُلّف الأوّلون إذًا بالعمل على نفوسهم، أي في كرم الرّب.

ثم خرج نحو الساعة التاسعة، فرأى فعلة آخَرين، وهم واقفون في الساحة بطّالين، **ولمّا خرجَ نحوَ الساعة الثالثة (التاسعة صباحًا)، رأى آخَرينَ واقفينَ في الساحة بطّالينَ، ولهؤلاءِ قال: واذهبوا أنتُم إلى الكرم، وما هو حقٌّ سأُعطي لكم** (آ ٣-٤)، أي أنّ ربّ الكرم يتمتّع بصفة التفتيش. لقد فتّش المالك، ولكن عمَّن سوى البطّالين؟ ومَن هم هؤلاء البطّالون الواقفون في الساحات؟ هم الذين يفتّشون عن رحمة الله، كحال الأعميَين اللذَين صرخَا طالبَين الرحمة من يسوع ابن داود (آ ٢٠: ٣٠)، ومنعوا أنفسهم عن المآخذ وعن النوايا السيّئة وعن اللهو بالأمور الدنيويّة، كما حذّر المسيح التلاميذ من التلهّي بالسعي إلى السلطة والمراكز الأولى (١٩: ١٣-٣٠)، وإلى التزلّم لأيٍّ كان، كما هي الحال مع اليهود الذين تزلّموا لموسى لأنّه شرّع لهم الطلاق على حساب الشريعة الإلهيّة (١٩: ٧)، وإلى الانجراف أو الانجذاب إلى القشور الأرضيّة، كما هي الحال مع الشاب الغنيّ الذي لم يستطع اتّباع يسوع بسبب غناه الأرضيّ (١٩: ١٦-٢٢). أمّا المستأجَرون الذين لا يعيشون البطالة فلا يستطيع ربّ الكرم أن يتعامل معهم أو أن يستأجرهم. إنّ الفاعل الذي يقف في الساحة وهو في حالة البطالة، كان ينتظر الله ويفتّش عنه، لذلك فربّ الكرم لم يتطفّل عليه بعرضه. فلنأخذ المثل التالي لتوضيح الفكرة: إذا كنت أنا من أتباع أحد الزعماء السياسيّين أو كنت مأخوذًا بوظيفتي ومسؤوليّاتي وأعاني من حالة ضياع وارتباك، فبسبب ذلك لن يأتي ربّ الكرم إليّ ليقول لي: «أنت بطّال تعال واعمل في كرمي»، لأنّني منشغل غير مستعدّ له أو لطلبه. في حالة كهذه لن ألتقي به، ولا هو سوف يلتقي بي، لأنّ طريقي مغاير لطريقه.

في الواقع إنّ الكرم الذي يمتلكه الرّبّ ما هو إلّا نفس الإنسان التي تُجبل لتصبح نفسيّة، لذلك فهو يتسامح مع ذاته بالتطفّل ليدعو البطّالين إلى العمل فيها. لكن مَن هم هؤلاء الفعلة البطّالون الذين ينتظرون في الساحات؟ إنّهم

عقول البشر الذين بمعرفتهم الكاملة يسعون طالبين التنوير والنضج والحكمة، من دون الشعور بضرورة الدروس الجامعيّة لأنّهم عالمون كلّ العلم أنّ هذه المواهب تأتي منه مباشرة. بينما العقل المستأجَر يتلهّى بالبحث عن كيفيّة التوصّل إلى الطرق التي تؤدّي إلى الاختراعات أو التي تكشف عن كيفيّة التوصّل إلى هذا الاختراع أو ذاك. إذًا فالكرم الذي يمتلكه الرّب ويمون عليه هو نفسيّتنا، والفعلة الذين يمون عليهم هم عقولنا التي تفتّش عن السلام والنضج والحكمة في الله، وليس في الجامعات. والذي يفتّش عن الحكمة في الله هو ذاك العقل الذي صار بطّالاً له، لذلك فهو حتمًا سيلتقي بالله وبالمسيح، والعكس صحيح، وهو من الذين وجّه ربّ الكرم الكلام إليهم قائلاً: «إذهبوا أنتم أيضًا إلى الكرم وسأعطيكم ما يحقّ لكم» (آ ٤)؛ فعندما يلتقي عقل الإنسان بالمسيح ويستأجره، فهذا يعني أنّه قبله وكلّفه بالعمل في كرمه أي في نفسيّته.

أضاف الإنجيليّ قائلاً: «وعاد فخرج عند الظهر، ثم عند الساعة الثالثة بعد الظهر وفعل ذلك، ثمّ خرج فوجد فعلة آخَرين واقفين، فقال لهم: «لماذا تقفون هنا طول النهار بطّالين؟»، فقالوا له: «لأنّه لم يستأجرنا أحد»؛ هؤلاء لم يستأجرهم أحد، لأنّهم بالرغم من الملذّات الأرضيّة والتزعّمات التي تعمّ المسكونة لم ينجرفوا مع السياسة ولا مع الزعماء، ولم يؤخذوا كما سبق وذكرنا، لا بمؤسّساتهم ليتلهّوا بها ولا بإنتاجها ليكونوا بطّالين أحرارًا من أيّ شيء من هذا القبيل قد يستأجرهم. وهذا الأمر يوحي لنا بضرورة عدم تأثّر العقل بأيّ شيء، ليخلق في فكر الله الرغبة في استئجاره؛ في الواقع، يذكّرنا هذا الأمر بمثل الخروف الضال (مت ١٨: ١٢–١٣) الذي يفتّش عن الخروج من ضلاله، وليس الخروف «المضروب بالهبَل» أو المسرور بفلتانه. لقد أشار المسيح في مثله، عندما ذكر الخروف الضال، إلى الإنسان الذي يعيش حالة ضياعه منتظرًا ومفتّشًا في كلّ الاتجاهات بنيّة الالتحاق بقطيعه، والذي يفرح إذا ما وجد طريقه المنشود؛ والله، على ما يبدو، يأتي فقط صوب الإنسان الذي يفتّش عن الطريق الصواب ليستأجره. وعندما قال البطّالون: «لم يستأجرنا أحد»، أشاروا إلى حالتهم التي تشبه الخروف الضال، هم الذين ينتظرون في

الساحة مفتّشين ولم يستأجرهم أحد، أي أنّه لم تأخذهم الملذّات ولم يتزعّموا أو يتزلّموا لأحد، ولا حتّى قالوا إنّهم مقتنعون بعقولهم ليشيروا إلى عدم تشبّثهم بأفكارهم وبمفاهيمهم ومبادئهم (لأنّ التشبّث يظهر في تبرير الحالة التي أعيشها بالاستناد إلى المفهوم الذي أعتنقه، كما هي الحال عند اليهود الذين برّروا الطلاق بموسى الذي حلّله لقساوة رقابهم (١٩: ٨)، بل هم يبحثون عن الحقّ، فاستأجرهم ربّ الكرم.

ولمّا جاء المساء طلب ربّ الكرم من وكيله أن يستدعي الفعلة ليحاسبهم مبتدئًا من الآخِرين منتهيًا بالأوّلين (٢٠: ٨)؛ لقد خلق الله الإنسان عندما نفخ من روحه، إذًا فالآب يملك على نفس الإنسان، وهذا ما شدّد عليه المسيح في مثل الكرمة. والوكيل المذكور في هذا المثل هو المسيح بذاته الذي تسلّم الملك من الآب، وترجمه بسلطان الحلّ والربط، الذي يجعلنا نؤمن بأن لا خلاص إلاّ بيسوع المسيح؛ وهذا ما يدفعنا إلى القول إنّ الخلاص لا يأتي من أيّ مبدأ أو أيّ مذهب أو أيّ كلمة، بل من كلام يسوع المسيح الممثّل بالوكيل.

وعندما قال ربّ الكرم لوكيله: «إستدعِ الفعلة»، سلّمه في قرارة نفسه القرار، وانتقل الأمر من يد الله الآب إلى يد المسيح الذي ماثل أباه بممتلكاته المتجسّدة بالمساواة والرحمة وبانعدام الحسابات. لمّا أتى فعلة الساعة الخامسة أخذوا دينارًا (آ ٩)، بينما عندما أتى فعلة الساعة الأولى ظانّين أنّهم سيأخذون أكثر من الآخرين، أخذوا هم أيضًا دينارًا (آ ١٠)، فبدأوا يتذمّرون على ربّ البيت قائلين: «هؤلاء الآخِرون عملوا ساعة واحدة، وأنت ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار وحرّه (آ ١١–١٢). إذا ما طبّقنا ردّة فعل الأوّلين على ردّة فعل اليهود، فنجد ذلك صحيحًا، لأنّ اليهود هم أوّل أناس عرفوا الربّ ودعوا أنفسهم بـ«شعب الله المختار». وعبارة «شعب الله المختار» تعني أنّهم هم أوّل شعب اختاره الله من بين الأمم، فكان الله معهم، وأغناهم بالأنبياء لأنّهم ناجوه ودعوه وثبتوا بمناجاتهم وبدعائهم، إلى أن أتى المسيح. جاء المسيح

وبدأ بتعديل المفاهيم التي استنبطوها من كلام موسى والأنبياء ليصنعوا شريعة أدخلوا فيها مصالحهم وما ناسب تقاليدهم وعاداتهم، وجبلوها بكلام الربّ، الذي أُعطي لهم على لسان موسى والأنبياء؛ لقد قام اليهود إذًا بتحريف الشريعة لكي يستطيعوا أن يتكيّفوا معها، فأتى المسيح ليضبط هذا التحريف ويصحّحه فثاروا عليه. والآخِرون الذين سمعوا كلام الابن وتبعوه وأطاعوه يشبهون بمعزّة المسيح لهم معزّته لليهود وأكثر، بذلك تغيّر موقع اليهود ليصيروا آخرين. فما الذي عناه المسيح إذًا بـ«الفعلة»، عمليًّا؟ إنّ الفاعل المستأجَر من قِبل ربّ البيت، عليه بالتواضع والطاعة كي يتسنّى له أن يتعلّم من معلّمه موجبات كلّ لحظة في حياته. والواضح في الأمر أنّ المسيح استعمل في مثله كلمة «فاعل» وليس كلمة معلّم ذو خبرة، لتبرز فضيلة الطاعة التي لا يمكنه ممارستها مع الله إلاّ إذا تجرّد عن ذاته؛ فما على العقل إذًا إلاّ الخضوع للطاعة، أي للإلهام السماويّ الذي يصدر عن إرادة الله فقط. إذًا، عندما يدعونا المسيح إلى الدخول إلى كرمه، علينا بالعمل على ذاتنا انطلاقًا من طاعتنا وطواعيّتنا وتواضعنا واستيعابنا وحضورنا؛ فالفاعل لا ينبغي له أن يمتلك صفات المتعهّد أو المسؤول، لأنّه بذلك سيبتعد عن الطريق التي فيها سيلتقي بربّ البيت ليختاره ويستأجره كونه مستأجرًا من قِبل آخر.

فإذا كان الكرم يمثّل نفسيّة الإنسان فما على الفاعل، أي العقل، إلاّ تشحيل ما يمنع العناقيد من الإفادة من نور الشمس وحرارتها كي تنضج، وإزالة كلّ الأغصان اليابسة التي تعوق نموّ شجرة الكرمة وأغصانها الخضراء؛ والعقل، أي إرادة الإنسان وحرّيّته، عليه بتشحيلها من الأنانيّة والحسد والمآخذ، وإلاّ يصبح من بين الأوّلين الذين تعبوا وتحمّلوا ثقل النهار وحرّه، وفي النهاية صاروا آخِرين لأجل الكلمة التي قالها الوكيل: «أما يحقّ لي أن أتصرّف بأموالي كما أريد، أم عينك شريرة لأنّي أنا صالح؟ هكذا يصير الآخِرون أوّلين والأوّلون آخِرين» (٢٠: ١٥–١٦). وعلى أثر تصرّف الوكيل تجاه الآخرين بإعطائهم الدينار، كانت ردّة فعل الأوّلين الاعتراض على مساواتهم بهم، فأجاب الوكيل

متوجّهًا بكلامه إلى أحدهم قائلاً: «يا صاحبي، أنا ما ظلمتك، أمَا اتفقتَ معي على دينار؟ خذ ما هو لك واذهب...» (١٣-١٤)؛ بذلك خسر الفعلة الذين عملوا كلّ النهار.

أمّا ما أتينا على ذكره عن هذا المثل الإنجيليّ، فيتلخّص بما يلي:

الفاعل هو عقل الإنسان المدعوّ إلى أن يتحلّى بصفات الفاعل الذي لا يرتدي اللباس الفاخر أثناء عمله، بل لباس الفاعل الحقيقيّ الذي يُترجم بالخضوع للملاحظات والتوجيهات والإلهام في أيّ لحظة كانت، لأنّ العقل البشريّ المتأثّر بأفكار البشريّة يسعى دائمًا، ومن دون أن يدري، إلى أن يكون المشرف على الفعلة، لذلك عليه بالسهر على ذاته ليبقى فاعلاً أي مطواعًا للرّب كي يستطيع العمل في كرم الرّبّ، ليصل في النهاية إلى بَرّ الأمان.

خاتمة

عندما قال ربّ البيت للفاعل: «إذهب إلى الكرم واعمل فيه»، وجّه الكلام إلى العقل ودعاه إلى العمل؛ فإذا اجتمع هذان الاثنان وكانَا متكاملَين، يصبح الله حاضرًا ليعطيني دينارًا عند نهاية كلّ يوم عمل، وما الدينار إلا الملكوت.

إذًا فالدينار هو الملكوت، نناله إن آمنّا بكلام المسيح وليس بتشبّثنا بأفكارنا ومبادئنا، لأنّه لا أحد ينافس الله والمسيح إلاّ العقل وحده، خصوصًا عندما يبدأ بالاعتراض على حكمة الوكيل.

إنّ غالبية الشرّاح الذين حاولوا معالجة مت ٢٠: ١-١٦ اعتبروا أنّ الكرم يرمز إلى شعب الله، والذين استؤجروا في الساعة الأولى هم اليهود، ومن ثمّ الأنبياء، وفي النهاية المسيحيّين الذين صاروا الأوّلين.